حكايات حوّاء

على أبواب المدينة

وقصص أخرى

الأديب الكبير

الشيخ علي الطنطاوي

مكتبة دار حواء

الثقافة الناعمة

دار ابن حزم

على أبواب المدينة

وقصص أخرى

بسم الله الرحمن الرحيم

جَمِيع الحُقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

مكتبة
دار حواء

الكويت - حولي - شارع الحسن البصري
هاتف ٢٦١٤٦١٧ - ص ب : ٧١٤٩ الرمز البريدي : 22082 السالمية .

دار ابن حزم

للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص. ب : ١٤/٦٣٦٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كانت سلسلة (حكايات حواء) حلماً.. ثم اقتربت أكثر لتكون فكرة واكبت انطلاقة (دار حوّاء).. ثم غدت واقعاً بوصول هذه المجموعة وقريناتها إلى أيدي القراء الكرام.. والحمد لله على توفيقه.

ولم يكن مبعث الحلم والفكرة والواقع لدينا سوى أن نقدم إلى حوّاء - خصوصاً - وإلى جميع طلاب الأدب والفن القصصي، زاداً - وإن كان يسيراً - إلا أنه يملأ مساحة بديلة عمّا يتوهمه كثير من المتعطشين إلى الثقافة بأنه أدب أو فن بليغ، تلفظه أقلام بعيدة عن الله، قد التصقت أرواح حامليها بأجسادهم فاتخذتها معابد شهوة وإغواء، ومصّت كتاباتهم الأضواء حتى خالها العامة مصابيح فكر وثقافة.

على حين تزخر الساحة الثقافية المعاصرة بأقلام رفيعة الأدب بقدر ترفُّع أصحابها عن البهرج الكاذب والزيف المُدَّعى، مالكة لنواصي البلاغة والبيان ملك حملتها لطهارة الفكر ونصاعة الأخلاق، إلا أن (جارية الحي لا تطرب) كما يقول المثل القديم، إذ يتلقف الناس في وقتنا قصص نجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس ويوسف إدريس كمن حظي بكنز من المعرفة!! بينما توارت روائع قصص الرافعي والزيات والمجذوب وكأنما أبت عليها مكانتها السامية في دنيا الأدب أن تسابق الغثاء الطافي على السطح، مثلما يتأبى الأمراء عن مخالطة السوقة في مجالس القيل والقال. !!.

لقد رأينا في ضم هذه الأقاصيص الجميلة إلى بعضها في مجموعات منوعة لكتّاب مرموقين عملاً أشبه ما يكون بتقديم أحلى ورود البساتين في باقات أنيقة إلى الأعزاء في مناسبات الهناء.

وإننا لنرجو أن نكون قد وفقنا في اختياراتنا مثلما وفقنا في حرصنا على المؤلفين الكبار لهذه المجموعات

القصصية، وإن فيهم لمن قضى نحبه وورث الأدب خلاصة روحه.. وفيهم العلماء الأجلاء ممن لهم البلاغة والبيان إلى جانب العلم والتُّقى والصلاح.. وفيهم الأطباء بأدواء الجسوم العارفين بأشواق الأرواح.. وعلى العموم فكلهم صاحب فكر نظيف.. وقلم عف.. ومنهج قويم.

وليس لنا من أمنية إلا أن تحوز هذه المجموعة القصصية وبقية المجموعات الأخرى على ترحيب وقبول القراء الكرام، وتلبي بعضاً من نهمهم إلى المعرفة الراقية والفن الأصيل، وعسى أن تتحقق أمنيتنا ومن الله تعالى نرجو الفضل والسداد.

لجنة البحوث والدراسات

دار حواء

على أبواب المدينة

الأديب الكبير
علي الطنطاوي

على أبواب المدينة

الأديب الكبير:
علي الطنطاوي

زينب ـ كفي يا فاطمة. كفي يا حبيبتي، لقد بلغنا مشارف المدينة!..

فاطمة ـ وماذا أصنع في هذه المدينة؟ أألقى فيها أخي؟ أألقى الفتية الكرام من آل النبي؟ لقد ذهبوا يا زينب، لقد ذهبوا إلى الأبد...

سمية أمسى نسلها عدد الحصى وليس لآل المصطفى.... اليوم من نسل.

زينب ـ إنا لله وإنا إليه راجعون!

فاطمة ـ ماذا أجد في المدينة؟ يا مدينة الرسول! هؤلاء بنات الرسول يتامى ثاكلات أسيرات ذليلات، كأنهن سبايا الروم... يا مدينة الرسول...

زينب ـ فاطمة، أشفقي على الصغار، لقد نفدت دموعهن. . .

فاطمة ـ ولمن يدخرن الدموع بعد حسين؟ إبكين إبكين. . . لقد قتل الحسين!

زينب ـ فاطمة، أهكذا تدخلين المدينة يا فاطمة! كفى يا أختاه كفى.

فاطمة ـ لقد كانت مدينتي يا زينب يوم كان فيها أهلي، فمالي اليوم فيها من أهل. إن مدينتي هناك، في القفرة التي غصت أحشاؤها بأجساد الهاشميين، آه. . . هل دخل على أهل بيت ما دخل علينا؟ آه، يارب!

زينب ـ استعيني بالله.

فاطمة ـ لقد رأيت ابن أخي، وهو ابن خمس سنين يخرج من الخيمة فيتلفت مذعوراً لا يدري ماهذا الذي يرى فلحقته لأدخله، فوجدت. . . آه يارب، وجدت. . السهم. . . لقد قتلوا الطفل!

زينب ـ اصبري يا فاطمة إن الله مع الصابرين.

فاطمة ـ لقد رموا أخاه فمات في حجر أبيه فتلقى الحسين دمه بيده. . . أنظري يا زينب! ألا ترين إلى الدم قد خضّب حواشي الأفق؟

زينب ـ هذا هو الشفق يا فاطمة!

فاطمة ـ وهذا السواد الذي غطى على الكون؟

زينب ـ هذا هو الليل، مالك يا فاطمة؟ هذا الليل. .

فاطمة ـ إننا سنعيش في ليل دائم لا يلمح في جوانبه فجر. سنعيش بعد الحسين في ليل الأحزان السرمدي.

زينب ـ لقد عدت إلى البكاء! فاطمة إلى متى تبكين؟

فاطمة ـ إلى أن يرجع حسين، حسين خير الفتيان، وسيد شباب الجنة.

زينب ـ لا حول ولا قوة إلا بالله.

فاطمة ـ حسين يا أخي يا حبيبي، يا قرة عين رسول الله.

زينب ـ . . .

فاطمة ـ لقد رباك النبي، وغذتك فاطمة بنت محمد ليقتلك سنان بن أنس النخعي؟ لتكن ملعوناً يا سنان على كل لسان.

زينب ـ تعال كلمها يا علي، تعال كلم عمتك.

فاطمة ـ أين هو علي؟

علي - ها أنذا يا عمتي!

فـاطمة - أُدن مني يـا علي، أنت بقيـة آل محمد. أنت اليوم رجلنا وحـامينا، لم يبق إلا أنت... كـل أسرة فيهـا رجالهـا، ورجال بيت النبي مصرعـون في كربلاء. لقد وسع المسلمون بعدلهم الذمي والكافر، ولكن عدلهم ضاق عن آل النبي. لقـد قدمـوا الحياة السعيـدة للنصراني واليهودي، ولكنهم لم يجـدو لابن بنت النبي إلا الموت الأليم أفكان لهم ثـأر عندك يـا محمد؟!

علي - كفي يا عمـة، لست وحدك المصـابة، إن المجـد والشرف والإسلام، كـل أولئـك أصيب يـوم أصيب الحسين. كفي يا عمة لست وحدك البـاكية. ستبكي معك عيون طاهرة لن يجف فيها الدمـع إلى يوم القيامـة. لقد مـات الحسين، لقـد قتل أبي... ولكنه سيعيش خالداً بروحه في جنان الخلد، وخالداً بـاسمه في القلوب، ألم يخـتر هو المـوت اختيـاراً؟ ألم يقـدم عليه؟ ألم يعـرض عن نصيحة عمي محمـد بن الحنفيـة؟ ألم يستحلفـه عـالمـا الأمـة ابن عمـر وابن عبـاس أن يقيم في الحجـاز، وألا يثق بمـا يقـول الكـوفيـون، وألا يشق عصـا المسلمـين، فـأبى إلا

المسير، ألم يأته الخبر بمقتل مسلم بن عقيل وانقلاب أهل الكوفة عليه؟

فاطمة ـ بلى بلى، ولكنه رأى الجور فاشياً، والمنكر معروفاً، وأموال الله نهباً مقسماً، وحمىً مستباحاً، فنهض ينصر الحق، ويحيى العدل، ولم يقم حتى دعوه وألحوا عليه... ما كان يظن أن المسلمين يقتلون ابن بنت نبيهم، ويذبحون أطفاله، ويسوقون نساءه كما تساق أسرى الروم. فكيف كان هذا يا علي ولم تطبق السماء على الأرض؟ أيقتل بنو النبي وتسبى نساؤه ولا يغضب أحد؟ ألم يبق على ظهر الأرض مسلم؟

هذا ابن بنت النبي، وفتى بني هاشم، لو مات على فراشه لهز موته أهل الإسلام، فكيف وقد قتل مظلوماً، وقد قتل معه هؤلاء الفتيان البرءاء. وهتكت أستار أكرم بيت رفع على هذه الأرض! آه. أيطل دمك يا حسين؟

علي ـ اطمئني يا عمة! إن دم الحسين لن يطل. لقد وقع الزلزال فأفاق الناس فزعين، ولكن الهزة لم تدع لهم سبيلاً إلى التفكير. إن العالم حائر مشدوه لأنه لم يكن يصدق أن هذه هي النتيجة،

كلا ولا هؤلاء الذين تألبوا على أبي يحاربونه. كانوا يـظنون أنـه سيستسلم لهم. كانـوا يتحـامـو ن قتله، وينـأون عنـه، لا يــريـد أحــد منهم أن يلقى الله بـدمـه، وأن يبـوء بهـذه اللعنــة، فلما رأوه مقتـولاً ذعر وا، وتيقظوا كأنما أفاقوا من حلم هائل.

فاطمة ـ ولكنهم أفاقوا بعدما فـات الأوان. يا لهؤلاء الوحوش! يا للذئاب... لقد دعوه وألحوا عليه حتى إذا جـاء نهضوا إليـه بالسيـوف، وضنـوا عليـه حتى بالماء. لقد شهدته يقاتل عطشان قد جف حلقـه من الظمأ، فحسبتهم سيسقونه. ولكنهم سـددوا إلى فمه سهماً ملأ فمه بالدم. هذا هو الذي منوا به عليه!

عــلي ـ إنهم سينـدمــون يـا عمــة. سيعضــون أصــابعهم حسرة، إنهم سيلطمون وجـوههم لوعـة. إن هؤلاء الذين قتلوا الحسين وقتلوا أباه، هم الذين سيبكـون عليه وعـلى أبيـه. إن الكـوفـة التي أذاقتنـا الغصص ستكون مثابة شيعتنا، ومثـوى أحبائنـا... سيفنى الأعـداء، ويبقى الأحبـاء، سيـأتي يـوم يقـال فيـه: أين من قتلوا حسينـاً؟ أين أنســالهم؟ أين من يبغض آل بيت النبي؟ قـد خلا وجـه الأرض منهم، ليس في الدنيا من بني أمية أحد.

الدليل ـ وما ذنب بني أمية؟

علي ـ لقد نسيت أنك هنا، ما كان لي أن أتكلم عن بني أمية بمسمع منك.

الدليل ـ ولم يا سيدي؟ إني من جنود بني أمية ولكني محب لكم ولذلك صحبتكم. وهل يتم إسلام امرىء يبغض آل بيت نبيه؟ إني والله ما أؤثر عليكم أحداً من بني أمية ولكنها كلمة الحق.

علي ـ وما هي كلمة الحق؟

الدليل ـ هي أن أمير المؤمنين يزيد لم يرد قتل أبي عبدالله ولم يأمر به، ولقد كتب إلى ابن زياد بألا يقاتل من لم يقاتله.

علي ـ لقد عرف ذلك الحسين، فسأل القوم أن يدعونه حتى يضع يده في يد يزيد، أو يمضي إلى ثغر من ثغور المسلمين فيقاتل فيه المشركين، أو يعود من حيث جاء.

الدليل ـ أنصفهم والله! ولو قدم على يزيد لوجده مبجلاً له، عارفاً بقدره؛ إن لم يمنعه دينه من قتله، منعته مروءته (وهو ابن عمه) أن يرمل نساءه ويهتك أستاره.

علي ـ صدقت والله، ما رأينا من يزيد إلا خيراً. أحسن إلينا ولعن ابن سمية وترحم على الحسين، وكان قصره من البكاء على أبي عبدالله كأنه في مناحة. ولكن المجرم شمر بن ذي الجوشن.

فاطمة ـ هذا الذي أوقد النار وضرّاها. لتنزل عليه اللعنة الحمراء، ليكن ملعوناً على كل لسان إلى قيام الساعة.

علي ـ وعبيدالله بن زياد.

فاطمة ـ هذا الذي أمر بها، هذا الذي ضرب بقضيبه فماً قبَّله رسول الله. لتنزل عليه اللعنة الحمراء. ليكن ملعوناً على كل لسان إلى قيام الساعة.

علي ـ سيبوءان بلعنة العصور ويصيران سبة التاريخ. لقد فقدا الدين والمروءة وخسرا الشرف. لم يستثر حميتهما، ولم يهج إنسانيتهما، هؤلاء الأبطال الذين وقفوا يدافعون عن الحق، ويذودون عن أسرة النبي، يقاتلون وهم عطاش والموت عن أيمانهم، والموت عن شمائلهم، والموت من أمامهم، وهم ماضون في سبيلهم لا يريدون مالاً، ولا يبغون جاهاً، ولا يحرصون على عرض من أعراض الدنيا،

ولكنهم يريدون الله، حتى إذا أحسوا باليأس طفقوا يسارعون إلى الموت واحداً بعد واحد، وكلما ذهب منهم بطل ودع الحسين وسلم عليه وأسلمه من خلفه ليدافع عنه، حتى فارقوه جميعاً ليلقوه في الجنة.

هؤلاء هم الأبطال الأشراف الذين ستبقى أسماؤهم درة في تاج التاريخ تلمع أبداً فتضيء للسارين طريقهم إلى النبل والشرف والمجد: حبيب بن مظاهر، وزهير بن العتيق، والحر بن يزيد الذي كفر عن خطيئته، وتاب من ذنبه، رحمة الله على الجميع.

زينب ـ انظري يا فاطمة لقد وصلنا إلى المدينة.

فاطمة ـ خرجنا منها منذ شهرين فسحنا في الأرض ورأينا العراق والشام ولكنا عدنا كالسبايا. لقد خسرنا كل شيء، آه! أين! أين أنت يا أخي تستقبلنا؟... أين فتيان بني هاشم يحفون بنا؟ أين رجالك يا أسرة النبي؟

زينب ـ يا فاطمة. إنهم ذهبوا ولكن الله باق.

فاطمة ـ هذه داركم يا آل النبي. فتجرعوا فيها الآلام. هذه الدار فاذكروا ساكنيها الذين احتواهم جوف الأرض من كربلاء. هنا كانوا يقيمون وهنا كانوا.

علي ـ قد بلغنا المسجد، فانزلي فسلمي على الرسول، انزلي يا عمة.

فاطمة ـ السلام عليك يا رسول الله... يا جدي... لقد قتلوا ابنك الحبيب!.

سيّدة من بني أُميّة

الأديب الكبير
علي الطنطاوي

سيدة من بني أمية

الأديب الكبير:
علي الطنطاوي

إذا زرتم دمشق، فسلكتم السوق الصغير، قبل المسجد، المسمى بسوق القباقبية، فاسألوا عن (المصبغة الخضراء) وهي تحت الأرض في زقاق ضيق، فقفوا عليها ساعة.. فثمة كانت سرة الأرض، وقصبة الدنيا: الدار الخضراء دار الخلافة الأموية!..

نحن في دمشق.. في يوم الجمعة التاسع من صفر سنة تسع وتسعين للهجرة.. والبلدة خالية الطرق، مغلقة الحوانيت، لا تكاد ترى فيها أحداً، لأن الناس قد اجتمعوا حول قصر الخلافة، وفي الساحات المطيفة به، وفي الدروب المؤدية إليه.. وكان صحن القصر مزدحماً بالرؤوساء والوجوه، أما الأمراء وكبار القواد وجلّة الخواص، فقد احتلوا (المجالس) والأبهاء، وعلى وجوههم جميعاً أمارات

الترقب والإنتظار، في شيء من الخشية والجزع، ذلك لأن أمير المؤمنين سليمان بن عبدالملك، قد فجأه المرض واشتد عليه، وأشيع أنه مشرف على الموت، وكان عند مستشاره، رجاء بن حيوة منفرداً به.

وفي داخل القصر حيث كانت منازل الحرم، وكانت نساء الأمراء من بني أمية، يترقبن الأخبار، وفي صدر المجلس زوجات يزيد وهشام ومَسلمة وبقية إخوة الخليفة. وكل واحدة منهن تأمل أن تكون البشارة لها، بأن زوجها هو الذي انتخب للخلافة بعد سليمان، الذي يتظاهرن بالحزن عليه، والخشية من وفاته، وتتمنىٰ كل واحدة منهن موته، ليخلو مكانه لزوجها!..

وكان في طرف المجلس فتاة بارعة الجمال، بالغة الأناقة، عليها ثياب لا تدانيها في غلاء ثمنها وجمال مظهرها ثياب واحدة منهن، وكان يبدو عليها من الهدوء والوقار ما ليس مثله علىٰ واحدة منهن، كأنها لا تشاركهن في رغبة ولا خشية ولا أمل، وكأنها قد قنعت بما نالت فما تطلب فوقه مزيداً.

ولقد نالت في الواقع كل ما تطمع فيه فتاة حازت الجمال والمجد والأدب والزوج الصالح الثري، والعيش الناعم الرخي، ولدت على فرش الخلافة في قصر أمير المؤمنين، ونشأت في أحضان العز تتقلب في النعيم، وما طلبت شيئاً ولم تصل إلى ما طلبت، ولا اشتهت شيئاً ولم تنل ما اشتهت..

وشبت فكانت فتاة فتانة بخَلقها وخُلقها، بارعة في جمالها وفي كمالها، ولم تكن تجد إلا من يحبها ويدللها، حباً بها، وتزلفاً إلى أبيها.. أما عرفتم بعد من هو أبوها؟ أتعرفون كم دولة اليوم بين المغرب الأقصى، والأفغان؟..

لقد كان أبوها يملك، وحده، هذه البلاد كلها، ما بعد أمره فيها أمر، ولا فوق سلطانه فيها سلطان!..

إنها «فاطمة بنت عبدالملك»، بنت الخليفة، وأخت الخلفاء.. لقد طمحت إليها لما شبت أنظار فتيان أمية، فاختار لها أبوها فتىٰ الفتيان، من التقىٰ فيه مجد أمية وتقوى عمر، السيد الأموي النبيل عمر بن عبدالعزيز.

وانتقلت من قصر إلىٰ قصر، ومن نعمة سابغة إلىٰ نعمة سابغة، فزاد عيشها ترفاً ورغداً، وزادت النعم عليها تدفقاً وازدحاماً.

* * *

كانت فاطمة في طرف المجلس، مترفعة عمن فيه، ليس لها أمل يستخفها وليست في نفسها حسرة على ضياع هذا الأمل تحزنها، وإذا بصوتين يملآن جوانب القصر، صوت فيه الفجيعة والألم، هي نعيُ أمير المؤمنين، وصوت فيه الخيبة لناس والبشارة لناس، وفيه الدهشة للجمع، هو إعلان تسمية أمير المؤمنين الجديد: عمر بن عبدالعزيز!..

وانتقلت فاطمة في لحظة من الطرف إلى الصدر، وكانت معتزلة لا يأبه لها أحد، فصارت هي مطمح الأنظار، وغدا اليها مهوىٰ القلوب، وتأخر نساء الأمراءٍ، لتتقدم امرأة الخليفة، وخرجن كلهن وراءها، وقد كانت دخلت، لما دخلت، وراءهن جميعا

وعادت إلى قصرها، ورقص القصر من الفرحة، ضحك بالنور، وكان يترقب عودة سيده، ليتم

بعودته النعيم، وتكمل الأفراح. وقعدت فاطمة تذكر الماضي الحلو الجميل، وتناجي مستقبلاً ترجو أن يكون أجمل وأحلى.

ذكرت يوم انتقلت من قصر أبيها أمير المؤمنين عبدالملك، إلى قصر زوجها، وابن عمها، الأمير عمر، فإذا قصر الأمير أعظم من قصر الخليفة، وإذا هو يبذه في فرشه وزينته وتحفه وخيراته..

لقد كان عمر أكثر أموي ترفهاً وتملكاً، غُذي بالملك ونما في ظلاله، وكانت ثيابه التي يخرج فيها للناس يزيد ثمنها على خمسة آلاف درهم، وكان العطر الذي يتعطر به يؤتىٰ به إليه وحده من الهند، فكان إذا جاز بمكان عرفه من لم يره من عبق عطره.

وكان الأشراف يعطون الغسالة العطية الكبيرة، لتجعل ثيابهم مع ثيابه، ليسري إليها من رياه، وكانت له مشية سماها الناس (العمرية) من حسنها وجمالها، وكانت الغواني يحاولن أن يتعلمنها، وأن يقلدنه فيها، وكان يرخي ثوبه علىٰ عادة الفتيان الأشراف المدللين في ذلك الزمان، فربما دخل الثوب

في النعـل فيشده حتى يتمـزق، ولا ينحني ليصلحه، مـع أن الثوب من ثيـابه قـد يزيـد ثمنـه عـلى ألف درهم، وقـد يسقط عن منكبيه فيـتركه ولا يـرفعـه، حتى يجيء من يأخذه!..

تصـورت فاطمـة هذا كله، ومـا شاركتـه فيه من النعم، في حياة عاشاها لا يبلغ الخيال مداها، وكان يجمع بينهما أظهر الحب وأقواه، وكانت إشارته عندها أمراً، ورغبتها عنـده فرضـاً، لا تخالفـه في شيء ولا يرد لها عنده طلب!..

* * *

وبــدأت تتسرب إلى القصر أخبــار عجيبــة عن الخليفة الجديد.. فمن خادم يدخل مسرعـاً يخبر أن الخليفــة رفض مـراكب الخـلافـة، وألغى المـوكب المعتاد، وركب دابته.. وآخر يأتي يقـول أن الخليفة أعلن إلغـاء حفلات البيعـة بما كـان لها من العـظمة والجـلال.. وثـالث يقـول إنـه أبى أن يمـد يـده إلى شيء من أموال الخزانة..

وتسمع فاطمة هذه الأخبـار فلا تكـاد تصدقهـا، إنها تعرف زوجها الشاب المتفتح قلبه لنعيم الدنيـا،

الغـارق في الرفـاهية والنعيم والمتـع الحلال.. فـماله يعـرض عن الدنيـا التي جاءتـه مقبلة عليـه، ملقيـة بكل ما فيها من جميل وجليل عند قدميه؟..

وعـاد الخليفـة إلى قصره، ولكنـه عـاد رجـلاً جديداً...

لقد تبدل فيه كل شيء، لقد بدت النعمة للناس بحكمـه منذ بـويع، ولكن أهله رأوا في بيعتـه بوادر الشقاء!!..

وتلقته فاطمة، فإذا الأيام الثلاثـة التي غاب فيهـا عنهـا، قد فعلت فيـه فعل ثـلاثة قـرون.. وإذا هو شـاحب الوجـه من أثر السهـر في مصالـح النـاس، مضـطرب الأوصـال من ثقـل الأمـانـة وخـوف الله فانشعب قلبها رأفة به، وإشفاقاً عليه.

وقـال لها: «يـافاطمـة، قد نـزل بي هذا الأمـر، وحملت أثقل حمل، وسأسأل عن القاصي والداني من أمـة محمد، ولن تـدع هـذه المهمـة فضلة من نفسي ولا من وقتي أقوم بها بحقك علي، ولم تبق لي أربـاً في النساء، وأنا لا أريد فراقك، ولا أوثر في الـدنيا أحـداً عليك، ولكني لا أريـد ظلمـك، وأخشى ألا

تصبري على ما اخترته لنفسي من ألوان العيش، فإن شئت سيرتك إلى دار أبيك..

قالت: وماذا أنت صانع؟..

قال: إن هذه الأموال التي تحت أيدينا، وتحت أيدي إخوانك وأقربائك قد أخذت كلها من أموال المسلمين. وقد عزمت على نزعها منهم وردها إلى المسلمين، وأنا باديء بنفسي، ولن أستبقي إلا قطعة أرض لي، اشتريتها من كسبي، وسأعيش منها وحدها، فإن كنت لا تصبرين على الضيق بعد السعة، فالحقي بدار أبيك!!..

قالت: وما الذي حملك على هذا؟..

قال: يافاطمة، إن لي نفساً تواقة، ما نالت شيئاً إلا اشتهت ما هو خير منه، اشتهيت الإمارة فلما نلتها اشتهيت الخلافة، فلما نلتها اشتهيت ما هو خير منها، وهو الجنة!..

* * *

ترى لو أن تاجراً موسراً، أو موظفاً كبيراً يسكن في القصر الضخم في الشارع الكبير وفي داره

نفـائس التحف وروائع الفـرش، ثم أراد أن يتخلى عن ذلك كله لله، هل يجد زوجة توافقه على ذلك، وتـرضى به، وتعيش معـه في غـرفتـين فـارغتـين في حارة ضيقة، وتأكل معه الحمص والفول بعد المائدة الحافلة، وتمشي على رجليهـا بدل سيـارة الكاديـلاك الخاصة؟..

لا أظن أن زوجة ترضىٰ بهذا، اليوم..

أما فاطمـة التي انفردت بـين نساء التـاريخ جمعـاً بـأنها بنت ملك وزوجـة ملك وأخت أربعـة ملوك، يحكم كل منهم عشرين دولة من دول هذه الأيام.. فاطمة، هذه قالت لـزوجها، بعـدما سـألته وعـرفت مقصده ودوافعه:

- اصنع ما تراه، فأنا معك، وما كنت لأصاحبك في النعيم، وأدعك في الضيق، وأنا راضية بما ترضى به..

* * *

وانقـطع فجأة عيش النعيم، الـذي قلما ذاق مثله المترفون، وجاء عيش شدة وضيق قل أن عرف مثله الفقراء المدقعون!!.

ما انقطع لأنهما افتقرا بعد غنى، ولا لأن الدنيا أنزلت بهما مصائبها وأرزاءها، ولكن انقطع لأنهما آثرا نعيماً أبقى وأخلد، نعيماً لا يزول، على حين يزول كل نعيم في الدنيا..

وبدأ عمر فأعتق الإماء والعبيد، وسرح الخدم، وترك القصر، ورد ما كان له فيه إلى بيت المال، وسكن داراً صغيرة شمالي المسجد، وكان في دار الحكم أقدر حاكم، وأحزم ملك، وأعدل خليفة، فإذا جاء داره هذه الصغيرة، كان فيها كواحد من غمار الناس..

جاءت امرأة من مصر، تريد أن تلقى الخليفة، فهي تسأل عن قصره، فدلوها على داره، فوصلت، فوجدت امرأة على بساط مرقع، بثياب عتيقة، ورجلاً يداه في الطين، يصلح جداراً في الدار، فدهشت لما علمت أن المرأة القاعدة على البساط هي فاطمة بنت عبدالملك وارتاعت منها وتهيبتها فآنستها فاطمة حتى اطمأنت إليها وأنست بها فقالت لها ياسيدتي، ألا تستترين عن هذا الطّيان فابتسمت فاطمة وقالت: هذا الطّيان هو أمير المؤمنين!!..

وجاءه في خلافته بياع قماش يعرض عليه ثوباً ثمنه ثمانية دراهم فقال عمر: إنه حسن لولا أنه أنعم مما ينبغي!..

فقال الرجل: لقد جئتك وأنت أمير المدينة بثوب ثمنة خمسة آلاف درهم فقلت لي: إنه حسن لولا أنه خشن!!..

ومرض الخليفة مرة وكان عليه قميص وسخ، فدخل مَسلمة بن عبدالملك على أخته، فقال لها: يافاطمة، اغسلوا قميص أمير المؤمنين.

قالت: نعم

فعاد من الغد فإذا هو لم يغسل، فقال:

- يافاطمة اغسلوا قميص أمير المؤمنين، فإن الناس يدخلون عليه..

قالت: والله ما له قميص غيره!..

ولم يدع من الخدم إلا غلاماً صغيراً، كان هو الخادم الوحيد في قصر الخلافة، فوضعت له فاطمة الطعام يوماً، فضجر الخادم وتبرم وقال:

- عدس! عدس! كل يوم عدس..

قالت فاطمة: يابني، هذا طعام مولاك أمير المؤمنين..

واشتهى الخليفة يوماً العنب فقال:

- يافاطمة أعندك درهم نشتري به عنباً؟..

قالت: أنت أمير المؤمنين، ولا تقدر على درهم تشتري به عنباً؟..

قال: يافاطمة، ما بقي لي إلا هذه القطعة من الأرض، وريعها لا يكاد يقوم بحاجاتي، والصبر على هذا أهون من الصبر على نار جهنم..

ولم يكن قد بقي لفاطمة من أيام النعيم إلا جواهرها، فقال لها يوماً:

- يافاطمة، قد علمت أن هذه الجواهر قد أخذها أبوك من أموال المسلمين وأهداها إليك، وإني أكره أن تكون معي في بيتي فاختاري إما أن ترديها إلى بيت المال، أو تأذني لي في فراقك!..

قالت: بل أختارك والله عليها، وعلى أضعافها لو كانت لي!!.

وردت الحلي إلى بيت المال..

وعاشت زوجة الخليفة معيشة لا تصبر على مثلها زوجة موظف في الدرجة العاشرة ورضيت بذلك اتباعاً لزوجها وأملاً بثواب ربها..

وشاركته خوفه من الله. وتفكيره في الآخرة..

دخل عليه مرة رجل صالح من جلسائه، فقال له عمر:

- أرقت البارحة مفكراً في القبر وساكنه:

فقال الرجل: فكيف لو رأيت الميت بعد ثلاثة أيام، والدود قد غطّى جسده وأكل لحمه، بعد حسن الهيئة، وطيب الرائحة، ونقاء الثوب!!..

فبكى عمر خرّ مغشياً عليه..

قالت فاطمة لمولاه مزاحم: ويلك يامزاحم، أخرج هذا الرجل.

فخرج الرجل، ودخلت على عمر فجعلت تصب الماء على وجهه وتبكي، حتى أفاق من غشيته، فرآها تبكي.. قال: يافاطمة ما يبكيك؟..

قالت: ياأمير المؤمنين، رأيت مصرعك بين أيدينا، فذكرت مصرعك بين يدي الله للموت..

وتخليك عن الدنيا وفراقك لها، فذلك الذي أبكاني..

* * *

بكت خوفاً عليه في حياته، فلما مات بكت أسفاً عليه، حتى غشي بصرها، فدخل عليها أخواها، مَسلمة وهشام يسليانها، ويعرضان عليها ما شاءت من الأموال، قالت:

- والله ما أبكي علىٰ مال ولا نعمة، ولكني رأيت منه منظراً ذكرته الآن فبكيت قالا: ما هو.

قالت: رأيته ذات ليلة قائماً يصلي، فقرأ ﴿يوم يكون الناس كالفراش المبثوث، وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾، فشهق من البكاء حتى ظننت أن نفسه قد خرجت، فما صحا حتى ناديته للصلاة..

ولما ولي أخوها يزيد الخلافة، رد عليها حليها، فقالت:

- لا والله، أبداً، ما كنت لأطيعه حياً، وأعصيه ميتاً، لا حاجة لي بها، فقسمها على أهله ونسائه وهي تنظر.

رحمة الله على أولئك الناس.. أولئك والله هم الناس..

ابن المحب

الأديب الكبير
علي الطنطاوي

ابن الحب

الأديب الكبير:
علي الطنطاوي

الطائف.. تلك القرية المسحورة التي سارت ذات يوم ـ كما تروي الأساطير ـ سارت من ربوع الشام بينابيعها وجداولها، وبساتينها ورياضها.. وزهرها وثمرها، فطافت حول الكعبة ثم تسلقت الصخور حتى استقرت في أعالي جبل (غزوان)، وهجعت على سرير من السحاب حالمة بالسهول والأنهار والنعمة والخصب، لتستيقظ مع الفجر فتصنع العظماء والقادة، وتقذف بهم إلى الدنيا الواسعة..

* * *

وكانت منازل الطائف كأنها أسراب من العشاق قد تغلغلت في هذه البساتين، لتفيء إلى عزلة سعيدة، تنعم فيها بذكرى اللقاء الماضي، وتحلم بلقاء جديد.. وأوى الزراع إلى بيوتهم فناموا بين أهليهم، كما نام الرعاة إثر نهار حافل بالتجوال

الفاتن، في هذه الجبال التي تتفجر صخورها السود بالنبت الأخضر والزهور البرية ذوات الألوان العارية، ولم يبق في المدينة عين ساهرة، إلا عين سيد غريب، يذكره هذا الليل الساجي، وهذا البدر المطل على البلدة، فيؤرقه الشوق، فهو يطوف بهذه المرابع ويده على قلبه، وعيوناً أخرى خلال تلك البيوت التي تبدو سرجها المضيئة من بعيد، كليلة الضوء «ترتجف» من الخجل، وهي تضرب بأشعتها تائهة وسط الفضاء حيث يجلس على العتبات فتيات بائسات يعرضن في استحياء أجساداً قد عرتها هاتيك المهنة الآثمة.. ينتظرن عابراً يسوقه المقدار إليهن فيبعنه اللذة، ويطعمنه من لحمهن.. ليعطيهن دراهم يحملنها إلى أسيادهن الذين يكرهونهن على البغاء، ولا يكون نصيبهن بعد ذلك إلا أرغفة من الخبز معجونة بالدم والشرف والوحل..

تلك هي سنة قوم لم يتأدبوا بعد بأدب الإسلام!..

فلما مال ميزان الليل، وغلبهن التعب، ولم

يطرقهن طارق، تسللن إلى بيوتهن فنمن على فرش العار، إلى الصباح، ليستقبلن من يقذف به القدر إليهن من الرجال، ولم يبق إلا فتاة صغيرة، تنظر إلى السماء بعينين زرقاوين بلون السماء، تفيضان بالطهر.. رغم أنهما في وجه بغي، ولها فم صغير حلو ينطق بالصفاء من غير أن تتحرك شفتاه الرقيقتان، وكأن هذا الفم وردة من ورد الجنائن، غير أنها لا تذوي ولا تذبل، وأنها من لحم ودم، وأنها تشم بالفم، وتلمس بالشفاه. وكانت من بنات الروم، فما تحترف عربية حرفة الخنا، وكان لها شعر أشقر متموج يبرق تحت أشعة القمر كبريق الذهب، وجسم أبيض لدن، له لون العاج، ولين الحرير، وسحر الحب، وفعل الخمر.. فهي وردة نمت في غير أرضها فازدادت بندرتها جمالاً إلى جمالها..

لو كان مكان هذه الفتاة بين ذراعي أم تحنو عليها، أو زوج يحميها، يكتم سر هذا الجمال أن يفشو ويستعلن وتعبث بقدسيته العيون السارقة والأيدي المجرمة.. ولكن من بيده أمرها لم ير لها إلا هذا المكان الذي تنتهبها فيه العيون وتعبث بها فيه الأيدي، وتفترسها فيه سباع البشر، أفرأيت

الزهرة اليانعة تلقى بين ألسنة اللهب؟ والحمل الضعيف يرمى بين أنياب الذئاب؟ وكذلك كانت هذه الفتاة وقد قذفت بها الحياة بين ذراعي كل وبش فظ غليظ من ذئاب الناس وكلابهم.

هي زهرة، ولكن الرياح العاتية قطفتها من غصنها ثم ألقتها بين الأشواك البرية لتجف عليها وتذوي؛ هي وردة ولكن النهر الجياش اختطفها من منبتها ثم رمىٰ بها في الحقل لتموت تحت أرجل البهائم والأناسي.

لبثت هذه الفتاة جالسة تطارد النوم الذي يعبث بعينيها الناعستين من غير نعاس، تأمل أن تجد امرءاً يدفع إليها المال الذي فرضه عليها سيدها حين أرادها على هذه الحياة الداعرة. فنزلت على إرادته، وجعلت جسدها مائدة لكل جائع، وهل تستطيع له دفعاً وهي أمته وملك يمينه، حملها من وطنها البعيد فنهل من كأس جمالها حتى شبع وروي.

فوضع الكأس على حافة السبيل تلغ فيها الكلاب، إنه يصرفها كما يصرف دابته، ويصنع بها ما يصنع بثوبه، يلبسه أو يرميه في الطريق أو يهديه

إلى صـــديق، أو يرضى لـــه التحـــريق والتمـــزيق، وذكـرت عـرضهـا الـذي مـزقتـه مـطامـع سيـدهـا، وجسدها الذي أبلته وحشيـة الرجـال طلاب اللذة، من كـل شكـل ولـون، فـانـطلقت تبكي، وذهبت هائمة على وجهها، حتى ابتعدت عن هذه البيـوت، وإذا هي بشبح يسير في شعاع القمر، متشحـاً بثوب أسود لا يبين منه شيء، فظنتـه من رجالهـا، ومشت إليـه، فلما رآها ارتـاع وارتد، وعجب أن يـرىٰ فتاة صغيرة كأنما هي حوراء من حـور الجنان تسـير تحت ذوائب الليل، وسألها: مالك أيتها الفتاة؟..

- ما لي؟ ماذا ترى في؟.

فلم يجب وجعـل يحـدق فيهـا تحـديقـاً شـديـداً، مأخوذاً بجمالها، وهي تنـظر متعجبة لأنها كـانت من السـذاجة والصفـاء بحيث لا تدري جمـالها وفتنتهـا، ولأنها لم تجد من الرجال من يرفع عينيه إلىٰ وجهها، وإنمـا وجـدتهم جميعـاً يخفضـون عيـونهم إلىٰ غـير الوجه.. فما بال هذا الرجل؟..

ومرت دقائق حسبهـا كل منهـما دهراً طـويلاً، ثم قـال لهـا بصـوت حلو رقيق، وقـد أشفق عليهـا أن

تنال برودة الليل من هذا الجسم اللدن الناعم الذي خلق لينعم بدفء الحب:

- لم لا تدخلين إلى دارك؟.

فأجابته هذا الجواب الذي ألفته حتى ما تفكر في معناه، ولا تدري منه إلا أنه واجب عليها يجب أن تؤديه كآلة جامدة:

- بعشرة دراهم.. هل تدخل؟..

ووثبت بين يديه تسعى إلى الدار بخفة ظبي أفلت من شبكة الصياد، وتبعها حزيناً متألماً، يفكر في هذا الجمال كيف تعلق به الأرجاس، ويأسى لها، ويتمنى لو استطاع أن يسمو بها إلى أفق الطهر والعفاف.. حتى بلغت الدار فدخلت ودعته إلى الدخول، ثم أغلقت الباب ووقفت بين يديه تنظر ما يريد.. يالهذه المسكينة التي عاشت وسط الرجس ولكن قلبها ظل نقياً طاهراً لأن الخطيئة لم تصل إليه.. فلم يبد الرجل حراكاً، فجعلت تنظر إليه حائرة وقد بدأت تخشاه وتظن به الظنون.. ما له لا يصنع ما يصنع سائر الرجال يأخذونها عارية كشعاع القمر، فيعبثون بها، ويسخرونها للذاتهم، كأنما هي أداة لا تعقل ولا تشعر، ويضطرونها إلى فتح

صدرها وشفتيها لقبحهم ووحشيتهم وأقذارهم، ثم يلقونها بعد أن تكل أجسادهم الجشعة.. كما يلقي المرء برتقالة امتصها حتىٰ لم يدع فيها إلا قشرة خالية من الماء..

ماله لا يفعل شيئاً من هذا؟ إنه ينزع ثوبه فيلقيه عليها يحفظها من برودة الليل، فيبدو من ورائه شبابه وجماله، وثيابه الغالية، ثم يأخذها برفق ويجلسها على ركبتيه، وينطلق يسائلها عن أصلها ومنبتها.. ويلقي في أذنيها من أحاديث الحب ما لم تسمع مثله من قبل، فيحيي في نفسها الطهر والفضيلة. ويغسلها من أدران هذه الحياة الداعرة، فتحس كأن جناحيها اللذين حطمتهما يد الأيام قد نبتا من جديد، وتحس بأن هذا السيد الذي هبط عليها هذه الليلة هبوط ملك الرحمة، يطير بها في آفاق طال عهدها بفراقها، آفاق واسعة كلها نور وعطر..

وتذوق للمرَّة الأولى لذة القبلات المعسولة، التي تمتزج بها النفسان وتتحدان، وتعرف حرارة الصدر المحب، وحلاوة العناق اللذيذ.

ولما خرجت تشيعه كان الليل قد تصرم وبدت طلائع الفجر من وراء الصخور، تغسل الأرض بالنور، بعد أن خلعت عنها رداء الظلام، فوقفت الفتاة تنظر إليه وقد أحست بأن هذا الحب وقد نقاها من رجسها، وأن الفجر قد سطع على قلبها فبدد ظلماته، وتنبهت في نفسها ذكريات ماض بعيد حسبته قد مات منذ زمن طويل فإذا هو حي قد أكسبه الحب يقظة وقوة، وطفقت صور من هذا الماضي تتدفق على نفس الفتاة فتبصر صباها الطاهر كثلج الصباح، وحياتها في تلك الخمائل البعيدة، من وطنها النائي، كفراشة تطير خلال الورد..

ولكنها لا تتبين هذه الصور، ولا ترى منها إلا خيالات ضعيفة.. لقد مشت عليها السنون فمحتها بأقدامها.. ثم تفكر في حياتها الحاضرة، التي تخوض حمأتها الدنسة، وتعرض لها صور هذه الأجساد البشعة القذرة التي مست جسدها، وعانقته وقبست منه لذتها، فيعروها ارتجاف شديد، وتواري وجهها بكفيها حياء وخجلاً.. ثم تذكر هذا الحب الذي مس قلبها بكهربائه فأضاءه وزكاه، فتعتزم التوبة لتصل ماضيها البعيد الطاهر، بمستقبلها الذي

طهره هذا الحب الوليد.

وبزغت الشمس ولم يغمض للفتاة جفن، فدخلت منزلها تستريح وإذا هي برجل يدخل عليها يبتغي أن تمنحه اللذة فتتأمل في وجهه فإذا هو «بكر الثقفي» أشد شباب الطائف وأقواهم، فيرعبها مشهده، ويروعها كأنما هي عذراء لم تفارق خدر أمها، فتبتعد عنه مضطربة..

فيعجبه ذلك منها، ويظن أنها تداعبه، فيبالغ في الاقتراب منها ويأخذ بيدها، فتحس لملمسه كأن حية سوداء قد التفت على عنقها، فيقشعر جسمها كله ويقف شعر رأسها وتصرخ به:

- ابتعد عني! فيضحك الرجل ويكركر من الضحك، ويشد على يدها ليجذبها إليه، فتعود إلى صراخها.

- ما للغزال نافراً هذا اليوم.. تعالي..

- قلت لك: دعني.. دعني.. لست لك..

فيصيح بها ساخراً: لمن أنت إذن أيتها العذراء البتول؟ ألزوجك؟.

ويوغل في الضحك ويضمها إليه فتلطم وجهه

وتوغل في الصراخ، فيغضب الرجل ويقسو عليها.

- ألم تقل لك: إنها لا تريدك؟..

صوت هادىء متزن، جعل بكراً يرسل الفتاة ويلتفت إليه، فيرى سيداً كامل الشباب موفور الرجولة، بثياب غالية تشعر بالسيادة والغنىٰ، وتطمئن الفتاة وترىٰ فيه حبيبها ومنقذها، ثم يخالطها الخوف عليه لأنها تعلم أي رجل هو بكر، ذلك الذي لا يقوم له شاب في هذا البلد ولا كهل، وتنتظر نهاية هذا العراك، وقد أعدت نفسها للدفاع عن حبيبها.

ويصيح به بكر مغضباً:

- من أنت أيهاالرجل الذي يتجرأ على بكر الثقفي؟..

ويرفع يده عليه، ولكن الرجل يغض من يده ويقول له هادئاً:

- أتحب أن تعرف من أنا؟ اقترب لأخبرك..

ويلقي في أذنه الاسم الكبير، فتسقط يد بكر على جنبه، ويعتذر لهذا السيد، ثم يخرج يائساً يفتش خلال البيوت عن بنت أخرى تبيعه اللذة.

ويأخذ هذا السيد بيد الفتاة إلى دارها التي أعدها لها.

وانعقد الرباط بين قلبيهما الحبيبين فأصبحت هي حياته لا يعرف الحياة إلا ساعة يكون معها، واختصرت دنياه كلها فكانت نظرة واحدة في عينيها، وملأت نفسه هذه الفتاة التي ظهرت له فجأة، كما تظهر الشمس من وراء الجبل فتملأ الوادي نوراً وحياة.

لقد نسي هذا السيد المجد الذي ينتظره في مكة، والمعركة الكبرى التي ترقب فيه قائدها ومديرها.

ذلك هو الحب، أقوى كائن وأعظم مخلوق..

يستطيع الحب أن يمحو من النفس صورة المجد والجاه، والفضيلة والرذيلة، والطموح والحسد، ولكن لا يمحوه شيء.

الحب آججية الوجود، ليس في الناس، من لم يعرف الحب، وليس فيهم من عرف ما هو الحب.

الحب مشكلة العقل التي لا تحل، ولكنه حقيقة القلب الكبرى.

الحب أضعف مخلوق وأقواه، يختبيء في النظرة

الخاطفة من العين الفاتنة، وفي الرجفة الخفيفة من الأغنية الشجية، وفي البسمة المومضة من الثغر الجميل.. ثم يظهر للوجود عظيماً جباراً، فيبني الحياة ويهدمها، ويقيم العروش ويثلها، ويفعل في الدنيا الأفاعيل.

كانا يلتقيان دائما فيتحدثان عن ماضيهما وحاضرهما، ويكشف لها من أسرار قلبه مثلما تكشف له من أسرار قلبها، فكان هذا التكاشف طريق الوحدة، والفناء في الحب، حتى إذا لم يبق لأحدهما سر يكتمه عن الآخر، لم يبق له «أنا» ينفرد بها عنه.

لقد طهرها بحبه، وصهر ماضيها الملوث فأحاله بنار الهوى جوهراً خالصاً، ورفعها من الحضيض الضيق الذي كانت تتقلب في ظلماته إلى سماء عالية رحيبة. وليس كالحب (إذا لم يكن في حرام) مطهراً للنفوس، ومصلحاً للأمم، وحافزاً إلى الفضيلة..

لولا الحب ما أشرقت الشمس وغمرت الأرض بنور ربها ولا منحتها الدفء والحياة. لولا الحب ما التف الغصن على الغصن في الغابة النائية، ولا عطفت الظبية على الطلا في الكناس البعيد، ولا

حنا الجبل على الجبل في الوادي المنعزل، ولا أمد الينبوع الجدول الساعي نحو البحر، ولولا الحب ما بكى الغمام لجدب الأرض، ولا ضحكت الأرض بزهر الربيع، ولا كانت الحياة. .

كانا يخرجان كل غداة حين تبتسم الشمس بسمتها الأولى فيجلسان على هذه الصخرة المنفردة المطلة على البساتين القريبة، والقفار البعيدة، فيشاركان العصافير غناءها، والورد ضحكه، والنسيم همسه، والنور طهره وصفاءه، فيتحدثان ويتناغيان كحمامتين ضمهما وكر، وهما ينظران إلى الرعاة يسوقون أغنامهم نحو السفوح العاشبة يغنون أغانيهم الساحرة، أو ينفخون في الناي تلك النغمة الفاتنة التي يتوارثها الرعاة جيلاً عن جيل فلا يفقدها التكرار حلاوتها ولا جمالها، فإذا انبسطت الشمس وتصرمت الظلال أويا الى الدار فعاشا روحاً واحدة في جسمين. .

ثم إذا وقفت الشمس للوداع خرجا مرة أخرى إلى الصخرة يودعان الشمس، فينظر كل منهما بأربع عيون، حتىٰ تغيب الشمس ويلقي الليل ذوائبه السود على الدنيا، فيعودان. .

الحب ربيع الحياة المزهر، ولكن الربيع ينتهي ويأتي الصيف بحرارته، والخريف بشحوبه، والشتاء بزمهريره، ولابد أن ينتهي الربيع.

أيام الحب كأس مترعة بالشراب، ولكن الكأس تفرغ ويحس الإنسان بالظمأ، ولابد أن تفرغ الكأس..

عاشا في ليالي الحب ما عاش الصيف، فلما بدت طلائع الخريف وغمرت الطائف وصخورها، وعلا صوت الواجب من بطن مكة يدعو هذا السيد، لم يبق بد من الفراق، إن الحرب تدور هناك وراء هذه السفوح البعيدة، يخوض قومه لظاها، أفيبقى في نجوة من لظى الحرب، وهو السيد الشريف؟ والفارس المعلم؟ أيتقلب قومه في غمار المعركة المشتعلة ويتقلب هو في أحضان امرأة يقطف من عينيها السحر ويذوق من فمها الخمر؟

لو أن رجلاً من قريش لم يكن في العير ولا في النفير رضي بهذا الفرار لكان له سبة الدهر، فكيف بسيد العير وصاحب النفير؟ لم يبق بد من الفراق، فليمزق قلبه شطرين، فيضع شطراً في هذه الأعالي

المخضرة الساحرة يحلم بالحب، ويتجرع الذكريات، ويذهب بالشطر الثاني إلى ميدان المعركة ليألم في سبيل المجد، وليحمل جرحه الدامي ليأسو جرح بلده، ليضح بالحب في سبيل الواجب، أو ما كان يراه بجاهليته وشركه واجباً..

وتهيأ للوداع:

وعادا يزوران مرابع الهوى ومجالس الحب، فيودعها ذكرياته وقلبه، لم يدع بقعة بين صخور (الشفا) المطلة على تهامة ومن وراء تهامة البحر، ومشارف (الهدا) التي تشرف على سفوح غزوان ومن ورائها وادي الأراك وعرفات ومكة، فقعد على صخرة (الهدا) وأخذ فتاته بين ذراعيه يضمها ويخفي وجهه في عنقها وخلال ثيابها، ويشم عبقها كأنما يريد أن يتزود منها لأيام الفراق، وأخذت هي بنشوة الحب فجعلت تشد بيدها عليه وتعبث بشعره، وتريح رأسها على رأسه، وتتمنى لو أن هذا الحب يصنع المعجزة التي ينتظرها المحبون أبداً. أن يمحو هذه «الأنا» و«الأنت» ويجعل العاشقين شخصاً واحداً كما جعلهما روحاً واحدة، فلما أبطأت المعجزة

وأيست منها جعلت ترى وهي بين ذراعيه كأن بينهما بعد المشرقين..

وكان عند أقدامهما بستان جميل، قد خالطت خضرته حمرة الشقائق الفاتنة فرأته يحدق فيه، وفي عينيه دمعة، فراعها ما ترى..

وانطلقت تسائله، فقال لها:

ـ اسمعي يافتاتي؟
ـ قالت: أنا سامعة..
ـ قال: أريد أن تغفري لي.
ـ قالت: ومم تستغفرني أيها الحبيب؟.

ـ قال لقد كان حبي وبالاً عليك. لقد كانت حياتك ساجية كليل الطائف. فملأها حبي زمهريراً وبرقاً ورعداً، لقد كانت مثل اللجة الهادئة، فهاجت فيها الأمواج، لقد أورثتك الألم، والألم حصاد الحب، فهل تغفرين لي،

ـ قالت: أي ألم ياحبيبي؟ أنا سعيدة.. سعيدة جداً..

ـ قال: ولكن الواجب يدعوني إلى الذهاب..

بـودي ألا أذهب، وأن أبقى معـك أبـداً. ولكن ماذا يصنع الإنسان ياحبيبتي إذا حكم القدر؟ أتحبين أن يقال: إني فررت من المعركة؟.

- قالت: وأنا؟.

- قال: سأعود إليك، أحلف لك أني سأعود..

- قالت: وهذا الذي في أحشائي؟

- قال: ماذا؟ ماذا تقولين؟ أأنت حامل؟.

- قالت: نعم

- قال: آه.. ابني..

واستـطاره الفرح فـأقبل يضـع قبلاتـه من وجهها وعنقها حيث تبلغ شفتاه..

- قـال: ليتني أبقى حتىٰ أراه.. ليتـني أبقـى.. هذا ابن الحب..

- قـالت: ابق، ابق، أتـوسـل إليـك، مـاذا تخشى؟..

- قـال: أخشى العار، إنها سبـة الدهـر، فدعيني أذهب، سـأعـود إليـك، أفتنسيني إذا أنـا ذهبت؟ أتلقـين بنفسك في أحضـان غـيري؟ لالا، إنـك لن تنسي، إنك ستقومين على تـربية ابننـا ستنشئينه عـلى

العظمة والمجد، ليكون رجلاً يحمل قسطه من إرث أبيه، وإذا سألك عن أبيه فلا تخبريه من هو أبوه. دعيه ينشأ مستقلا كالزهرة المنبثقة من صخر الجبل، ويَعِشْ حراً كالطائر الذي يغرد على كل غصن. لا تخبريه من هو أبوه، بل أعدِّيه لفهم هذه الحقيقة، حتى إذا صار أهلا لفهمها، وغدا كفواً لحمل هذا الإسم، كنت أنا الذي يخلعه عليه، وإن لم أكن حيا فسأدع له من يخلع عليه اسمي..

* * *

ووقفت الفتاة تنظر إليه وهو ينحدر في هذا الطريق الضيق، الذي يختفي حيناً وراء الصخر، ثم يظهر ويوالي سيره نحو الرمال، حتى غاب عن ناظريها، فتلفتت تلقاء البلد، فإذا هي تنكرها، وإذا هي لا تعرف من هذه الدنيا شيئاً بعد أن غابت عنها دنيا الحب، فخفق قلبها واضطرب، وجعلت تنادي حبيبها وتلح في النداء، وتشير إليه وقد غاب عن ناظريها وراء الأفق البعيد، فلما لم تجد مجيباً تيقنت أنها لن تلقاه أبداً.. فخرت على وجهها باكية منتحبة..

* * *

ولم يبق لها من الحياة إلا ذكريات هذا الحب الذي ولد شاباً قوياً ولكنه مات طفلاً صغيراً، وهذا المال الذي أبقاه لها الحبيب، تنفق منه علىٰ نفسها، فكانت تتألم وحيدة كشمعة تشتعل في البهو الخالي، وتقهر نفسها الأحزان فلا تجد من تبثه أحزانها، لم يكن لها إلا الحب، فكانت تعانق طيف حبها في الليل وتسايره في الطريق، وتناجيه في الصباح وتناغيه في المساء، وتصحبه إلىٰ هذه الأماكن التي عرفت فيها السعادة، ولكنها لا تجد في كل ذلك إلا الألم، إن كل ما ترى يذكرها بالحبيب فيزيدها لوعة، ومتع ليالي السعادة تستحيل إلى آلام..

فيا ليت الإنسان لا يذكر، إذن لما تألم. إن ذكرى اللذة مؤلمة، وذكرى الألم لا تسر.. أو ليس من أكبر النعم على الإنسان أن ينسى، لولا النسيان كانت الحياة لا تطاق..

لقد قوي حبها واشتد ولكنه استحال من طفل يرقص في شعاع الشمس، يلهو بالألاعيب إلى شيخ يائس يتأمل في الظلام، لقد نزع ثوب الفرح الزاهي، ولبس ثوب الكآبة القاتم، لقد انحصرت حياتها في أمر واحد هو التفكير في الحبيب الذي

أكسبه طول الفكر صورة سحرية بارعة لا يملكها بشر، فكانت تقيس من ترى من الرجال بهذه الصورة التي استقرت في خيالها فلا يعجبها رجل ولا تحفله.. بل لو أنها نظرت إلى صاحب هذه الصورة بشكله الحقيقي لما أعجبها!!.

أرادت أن تغرق غرامها في لجة العبادة فكانت تؤم معبد قومها في الصباح الباكر فلا تجد في هذه الآلهة المصنوعة من الحجر ما يثير في نفسها الورع والخشوع، وتتمثل لها مطرقة النحات الذي صنع الآلهة.. فتعاف عبادتها، ولا يروقها منها ما كان يروقها..

ما أشقى المحبين! يمشون كما يمشي الناس، ويأكلون كما يأكلون، ولكنهم يعيشون في دنيا لا يعرفها الناس، ولا يصلون إليها، تضيق الدنيا بالمحب إذا جفاه محبوبه، حتى ليكاد يختنق فيها على سعتها.. ويجد في العش الضيق الذي يلجأ إليه مع محبوبه دنيا واسعة.. ويتألم المحب في اللذائذ، إذا لم يذقها معه من يحب.. والطبيعة الجميلة سواد في عين المحب قاتم إذا لم تنزها مقلتا المحبوب..

كان عمل الفتاة أن تطوف كل يوم بهذه المنازل

التي ولـد فيهـا حبهـا ونمـا، تتفكـر وتتـذكـر وتقبـل الأحجار والأشجار، وتسـير مع الـوهم أحيانـاً فتظن بأن الحبيب حاضر معها، فتهم بعناقه وبثه شكـواها ثم تجـدها وحيـدة، فيحزن قلبهـا وتشتـد خفقـاتـه، وتسقط على وجهها فتبكي وتـذوب وحيدة لا يـدري بهـا إلا الله، وكـانت تـأمـل أن يعـود فتنتظره عــلى الـطريق وترقب الـدقـائق فـإذا تصرم النهـار ولم تـره عادت إلى منزلها آيسة محزونة..

وانتفـخ بطنهـا من الحمـل، فبـاتت تحمـل أثقـال الحب في بطنها وقلبها، وعزفت عن الطعام والمنـام، فرق جلدها وتهافت جسدها، فلم يعد في طوقها أن تطوف بمناسك حبها، ومنـازل هواهـا، فكانت تحيي الليل ساهـرة مؤرقة، تنـاجي النجم، وتسائـل الليل عن حبيبهـا ، وتخـاطبـه من وراء الصحـراء كـأنـه معها.

«أين أنت أيهـا الحبيب؟ هل تنـام السـاعـة آمنـاً مـطمئنـاً، أم أنت بـين ذراعي غـيري، قــد نسيتني ومحـوت من نفسك ذكـرى هذه البغي التي طهـرتهـا بحبـك، ولكنهـا لـوثت شرفـك ومجــدك بمـاضيهـا الـدنس؟.. لقد كـان حبك لي نقيـاً كـماء السـماء،

ولكن شهوتي المضطرمة عكرت صفاءه..

أنا الطائر الضعيف الذي حطم الدهر جناحيه فألف حياة الأرض مع الحشرات والهوام، فجئت أنت من السماء لترفعه بجناحيك القويين إلى السماء، فرفعته حتى استطاع أن يحلق فيها، ولكن هذا التراب الذي ظل عالقاً به غبّر جناحيك أيها الصقر، أفلا تعفو؟..

قد قنعت بك من الحياة، حتى ما أبالي إذا وجدتك ماذا خسرت، ولكن بماذا أقنع وقد خسرتك أنت؟..

أتذكر ساعة جلسنا إلى الصخرة وحيدين، والطير ترتل صلاة المساء، والشمس نائمة على سرير الأفق الصفراء كأنها مريضة كاد يختفي رأسها بين الوسائد، ونحن متعانقان، ثم نبهتني إلى مشهد الغروب، فطفقنا ننظر إليه مشدوهين حتى غبنا في قرارة حلم ممتع من أحلام الحياة..

أتذكر؟..

أتذكر مسرانا في هذه الغابة الصغيرة الملتفة، وقد خلونا فيها وحدنا وتركنا الدنيا بضجتها وصخبها،

نمشي وحيدين ليس معنا إلا الحب الـذي يربط بـين قلبينـا، نتلفت حولنـا فلا نـرى إلا جذوع الأشجـار المتعـانقـة، تتسلل من كـل جهـة حتى يضـل البصر طريقه خـلالها، وأغصـانها متشابكـة من فوقنـا كأنها سقف مرفوع.. لم أكن أشعر بالوحدة لأنـك معي، وهـل كنت أبتغي من دنياي أكـثر من ذلك؟ حسبي أنت من الدنيا.. أتذكر ذلك؟..

أتذكر تلك الشجرة المنعزلة الوحيدة التي كان لهـا في تاريخ حبي أجمل الآثار، أما أنا فسـاهرة أذكـرها وأفكر فيها!..

لماذا أذقتني لذة الحب؟.

لقد كنت راضية بالحياة مطمئنة إليهـا، أعيش في الـظلام، فلما عـرفت الحب عـرفت النـور والسمـو وعلمت مـا هي اللذة.. فلا أنـا أجد الآن النـور، ولا أنا أطيق الرجوع إلى الظلام..

* * *

ولست أستـطيـع أن أعيـد كـل مـا قـالت لأنــه مكتـوب في كل قصـة غرام. وهـل الغرام إلا قصـة واحدة تتكرر أبـداً ولا يمل البشر تمثيلهـا؟ وهل تمـر

ليلة على بلد فلا ترىٰ في أحشائه عاشقاً مدنفاً يسهر ويتألم، بينما ينام الناس آمنين، لا يرحمون المحبين، لأن الحب شيء لا يدري به إلا المحبون!.

ولبثت الفتاة علىٰ عذابها، حتى أحست بالجنين يتحرك في بطنها.. فذهبت تحمل وحدها عواقب هذه اللذة التي شاطرها متعتها الرجل.

* * *

واستهل الوليد جميلا كالزهر، حلواً كالأمل، نقياً كثلج الربا، تبدو في عينيه كبرياء أبيه، وجمال أمه، كما يبدو خيال السماء الصافية في البحيرة الساكنة، فتمتلئان بهما كما يمتلىء الجدول بمياه الينبوع الصافي، ويترددان فيهما كما يتردد صدى أنشودة الراعي في مسارب الوادي العميق..

فضمته إلى صدرها الفياض بالحب، ونذرت له حبها وحياتها.. وعزمت أن تكون له أما لأنه ابنها، وأن تكون له أباً لأنه ابن حبيبها الغائب، وأن تنشئه علىٰ العزة والمجد والسيادة، نزولاً عند إرادة الرجل الذي أحبت، ورجاء أن يحمل هذا الوليد اسم أبيه الكبير..

وتكامل مثلما يتكامل القمر في أوائل الشهر، فلم يلبث أن صار بدراً في كل عين. ونما مثلما ينمو الغصن في خمائل الروض، يرتفع في الربيع ليدرك نيسان ويستمتع بجماله ويزينه بورده، فلم يلبث أن ملأ بعطره كل أنف، ويتزايد كأنه أغنية محب بدأها همساً في جوف الليل ثم استطال بها صوته حتى ملأ الفضاء، فلم تلبث أن صارت على كل لسان، ويقوىٰ كأنه الحب ينبثق في القلب، فلم يلبث أن صار حباً مستقراً في كل قلب.

كذلك أصبح هذا الغلام..

كان ملء العيون والأفئدة، تمر السنون فلا تزيده إلا ذكاء ونبوغاً.. وكان سعيداً ينعم بحب أمه ومالها.. ولكن أمراً واحداً كان ينغص عليه هذه السعادة، ويؤلمه أشد الألم ، ذلك أنه لا يعرف من هو أبوه.. وكثيراً ما سأل أمه وأطال عليها المسألة، ولوّن لها الأساليب فكان يمنعها من أن تخبره إرادة أبيه، فتظل معتصمة بالصمت.. وكثيراً ما أمضىٰ الساعات ساهماً واجماً يفكر فلا يهتدي..

فأزمع أن يكون بفعاله أباً لنفسه.. وأن ينزل

من هذه الجبال فيغامر في الشرف المروم..

* * *

ظل ذلك السيد القرشي يفكر في الفتاة، ويصلها بالمال، ويتعرف أخبار ابنه ويقوم سبيله ولكنه انصرف عن الحب ولم يعد له في حياته مكان، إن على عاتقه عبئاً ضخماً، إنه يقود إحدى الفئتين في أعظم معركة عرفها تاريخ الإنسان من يوم هبط آدم من الجنة إلى يوم تقوم الساعة..

المعركة بين الحق والباطل، بين الحرية والاستعباد، بين المستقبل المنتظر والماضي الذميم، بين الحضارة والبداوة.. وكان هو قائد الفئة المدافعة عن الباطل، فجال الباطل جولة ثم اضمحل ، فإذا النور الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم يضيء الجزيرة، ثم يخرج إلى الشام والعراق، فترفرف عليها رايات محمد ظافرة منصورة، وإذا هذا السيد القرشي جندي صغير في جيش محمد!..

ذلك أن مقاييس العظمة قد تبدلت.. وأن الدين الجديد لا يعتمد على النسب ولكن على المزايا، ولا يعرف قانون الطبقات بل قانون

الكفايات، فهبط أبو سفيان، حتى صار جندياً، وارتفع هذا الرجل الذي لا يملك نسباً في هاشم ولا أمية وليس له جدود من مخزوم، ارتفع عمر حتى صار أمير المؤمنين ووارث كسرى وقيصر.

تبدلت الدنيا كلها، فإذا الدعوة التي كانت تكافح لتغلب مكة وأهلها قد ملكت الجزيرة كلها وغدت في حرب مع الأعداء الذين سرقوا حرية الشعوب، وعبثوا بتراث الإنسانية.

وإذا القرية التي كانت منقطعة وراء الرمال قد صارت منذ هبطها محمد قصبة الأرض، ووارثة المدائن سلطانها، وشريكة القسطنطينية في بلادها..

وإذا هذا المسجد الصغير المبني من الحجارة والطين وسعف النخل، يغلب الإيوان العظيم بشرفاته ودعائمه، وقصر الشالسيه بزخارفه ونقوشه وقبابه وأبراجه، ويصير ندوة الدنيا ومدرسة العالم..

ففي ذات مساء دعي الناس إلى الاجتماع في هذا المسجد، وكان المسجد دار السياسة، كما كان دار العلم والعبادة، فتوافدوا عليه من كل صوب، فلما

اجتمعوا قام أمير المؤمنين فبشر الناس بفتح جديد، وقدم إليهم شاباً لم يروه من قبل، يدعى زياداً، ليصف لهم هذا الفتح الذي جاء بخبره، واستشرف الناس ونظروا إليه، فلما أبصره أبو سفيان وكان في أصل المنبر إلى جانب علي خفق قلبه واضطرب.. إنه ابنه زياد، ابن الحب، وحبس أنفاسه ليصغي إليه، وقد خاف عليه الفضيحة، فإذا الفتى الجميل الوسيم يخطب خطبة يملك بها الألباب، ويستهوي القلوب فلا يتمالك نفسه أبو سفيان أن يقول لعلي:

- «أيعجبك ما سمعت من هذا الفتىٰ»؟..
- فيقول: «نعم»..
- قال: «أما إنه ابن عمك»
- قال: «وكيف ذلك؟»
- قال: «أنا قذفته في رحم أمه سمية»
- قال: «فما يمنعك أن تدعيه؟»
- قال: «أخشى هذا القاعد على المنبر».

يريد عمر بن الخطاب

* * *

وذهب أبو سفيان يلقى معاوية، وقد استيقظت

في نفسه ذكريات حبه القديم، وطفق ينظر من وراء خمسة وعشرين عاماً إلى تلك الفتاة التي أذاقته السعادة، ونازعته نفسه إلى الاعتراف بابنها علناً ثم ثناه أنه لم يحن الوقت بعد، فليتربص ولينتظر، ولكنه شيخ كبير هو هامة اليوم أو غد، فمن هو الذي يحمل هذا السر الذي يضيق به صدره؟ ليس له إلا صدر معاوية «كسرى العرب». .

* * *

ودعا معاوية: فقال له:

ـ اسمع يامعاوية. . أتعرف الفاكة بن المغيرة؟ لقد كان هذا الرجل زوج أمك هند بنت عتبة بن ربيعة التي جمع الله لها كبر النفس، وشرف الوالد، فلم يقو على حفظ هذه الأمانة واختلفا. . وتحاكما إلىٰ بعض كهان اليمن، وجزعت أمك وخافت، فقال لها أبوها عتبة:

ـ إني أرىٰ ما حل بك من تنكر الحال، وماذاك إلا لمكروه عندك». .

ـ قالت: لا والله باأبتاه، ماذاك لمكروه ولكني أعرف أنكم تأتون بشراً يخطيء ويصيب ولا آمنه أن

يسمي ميسماً يكون عليّ سبة». .

ـ قال: «إنّي سوف أختبره لك».

وخبأ له خبيئة فعرفها، ثم قدموا إليه أمك في نسوة، فجعل يدنو من إحداهن فيضرب بيده على كتفها، ويقول: إنهضي، حتى دنا من أمك، «فقال لها: إنهضي غير متهمة ولا جانية، وستلدين ملكاً يقال له: معاوية». .

فنهض إليها الفاكه فأخذ بيدها، «فنترت يده وقالت: إليك عني، فوالله لأحرصن على أن يكون ذلك الملك من غيرك». . فكانت امرأتي، وكنت ابني.

فإذا صحت بشارة الكاهن وجاء يوم تحقيقها، فاعلم أن لك شريكاً في ذلك الملك.

في ذلك اليوم تسمع صوت أبي سفيان أبيك الذي يستصرخك من أعماق قلبه، لترفع ابنه الذي انبثق من قلبه وحبه، وتخلع عليه اسمه، وتمنحه حقه من إرث أبيك، وإرث أسرتك الماجد. .

أتعرف من هو ذلك الأخ؟ هو الرجل الذي

خطب على منبر المدينة بين يدي عمر مخبـراً بالفتـح
إنه «زياد بن أبي سفيان»..

هتاف المجد

الأديب الكبير
علي الطنطاوي

هند والمغيرة

الأديب الكبير الشيخ:
علي الطنطاوي

في عشية من عشايا سنة ٤١ للهجرة ساكتة لا يسمع فيها إلا الصمت، في برية هادئة لا يرى فيها إلا السكون، كان يرى القادم على الحيرة إذا هو اجتاز بدبر هند، عند النخلة المتفردة التي قامت على الطريق عجوزاً طاعنة، قد انكمشت، وانطوت على نفسها وجلست صامتة وحيدة، تجيل عينيها الضعيفتين، في هذه الدنيا الصامتة، التي دارت من حولها، فتبدل كل شيء. وهي ثابتة.

كانت نبتة طرية مزهرة في ذلك الروض، فباد الروض كله وبقيت هي وحدها حطبة يابسة. وكانت كلمة في كتاب الماضي، فمحيت سطوره كلها، وبقيت هي وحدها الكتاب . هذه العجوز التي تراها فتحسبها قد فرغت من الهم، واستراحت من الحزن، تطوي أضالعها على ذكريات ضخمة،

لعالم كامل أخنى عليه الدهر وأضاعه، ولم يدع منه إلا هذه الذكريات، تحفظها وتحملها وحدها.

إنها لا تعيش في دنيا الناس، ولا يعيشون في دنياها، إنها لا تعرف شيئاً مما يحيط بها، ولا تنسى شيئاً من عالمها الذي افتقدته من زمان، عالم الحيرة، وعدي بن زيد، والنعمان العالم الذي احتوى مسراتها وأحزانها وروحها، فلما مر حمل ذلك كله معه، فعاشت من بعده بلا حب. ولا مسرات، ولا أحزان، ولا روح، إلا هذه الذكريات التي تنقر كل يوم نقرة في قلبها، فلو كان حجراً صلداً لتفتت، فكيف وهو من لحم ودم؟.

لقد بنت هذا الدير وتوارت وراء جدرانه، وعاشت منه في المنطقة الحرام، بين الحياتين، فلا هي بحياة الناس الدنيا، فيها متعتها وملاهيها ومشاغلها، ولا هي بالحياة الأخرى، منطقة وراء الحياة ودون الموت هي معيشة الدير.

وزادها ضيقاً وجموداً أنها في الدير وحدها، وبنته لتأوي إليه تناجي فيه ذكريات حبيبها الذي فجعت به، وعافت لأجله الأرض برحبها وسعتها،

وصبرت على هذا السجن الدهر الأطول، لا تدري مما وراء بابه إلا طرفاً مما يحمله إليها رجال القوافل الذين كانوا يمرون بها، وكان أقصى ما تصنعه إذا هي نشطت يوماً.

وأحبت أن تفارق منسكها، أن تسلك هذا الطريق الذي طالما مر عليه فاتحون ومنهزمون، وسارت فيه الحضارة مصعدة وهابطة، ومشى فيه ملوك وسوقة، وسوقة وملوك، ذهبوا جميعاً إلى حيث لايؤوب ذاهب، حتى تتعب من المسير، فتجلس على رابية، وتشرف على البلد الحبيب: الحيرة، التي كانت يوماً موطن هواها، وكانت فيها الإنسان الذي أعطته قلبها، وأعطاها متعة العمر، فترى الحيرة لا تزال ترفل في حلل الخزامى والأقحوان، ولا تزال قصورها البيض تخطر تياهة بين البساتين، ولا يزال نسيمها معطراً بأنفاس المحبين، تطفو على وجهه وسوسات القبل، وهمسات الغرام. ولكنها لم تكن تحيا فيها.

كانت تفكر في ماضيها، وما أصعب أن يعيش المرء في الماضي، ثم تذكر أنه لم يبق أحد من ناس

بلدها الحبيب لقد ذهبوا، ولا تدري أين ذهبوا ولم بقيت هي وحدها من بعدهم؟ وجاء هؤلاء، ولا تدري من أين جاءوا، حتى تغرب الشمس وراء الأفق البعيد، وتمشي الظلمة إلى الكون، فتعود وفي قلبها ظلمة أخرى، ولكنها لا تأمل أن يكر عليها فجر يوم جديد، لقد خلفت ضياء الفجر في طريق العمر فلا تملك أن تعود إليه. لقد كتب عليها أن تعيش في ليل دائم، وصمت سرمدي، هو صمت هذه الصحراء التي وسع صدرها أسرار الزمان، ثم أغلق عليه إلى الأبد.

كم بين ترابها ورملها، كم تحت روابيها وقبورها، من بقايا قلوب كانت محبة وكانت محبوبة، وأجسام كان فيهافتنة وجمال. وما أقرب ما يصير قلبها هي (أيضاً) تراباً فيها تطؤه أقدام لا تعرف أصحابها.. فما الحب؟ وما الجمال؟ وما الدنيا؟ إنها زوال في زوال.

وقامت العجوز تجر رجلها إلى الدير. لتبدأ ليلة مملة طويلة، كآلاف الليالي التي مرت بها من قبل، ليالي لا آخر لها، ولا أمل يسطع من خلالها.

إن السجين يأمل بالعفو ويرجو الحرية، ويتسلى

بحديث الرفاق، ويأنس بـأحداث السجن، وهى لا ترجو شيئاً، ولا تأنس بـأحد، ولا تتسلىٰ بحادث.

ولـطالما أمضت ليـالي قصيرة حلوة، تلك هى ليـالي الحب والوصال. ليالي زوجها عدي فتى الفتيان وأبيها النعمان. إنها كلما فكرت فيها رأتها دانية منها، قريبة كـأنها لم يطلع لهـا صبح، فـأين يـاترىٰ مكـانها من الوجود؟؟ أفنيت وعادت عدماً؟؟

لا، إن الفنـاء لا يقوى عليهـا. إنها موجـودة في الكـون كوجـودها في ذاكـرتها. إن الفنـاء لا يدرك حقيقتها كما أن النسيان لا يقوىٰ علىٰ محو صـورها. إنها لا تشبع من الإيغال في هـذا الماضي، لأنها كلما أوغلت فيه وجدت له طرق ظليلة، لا عهد لها بهـا. قد أزهر فيها المجد وبدا السنا، وربا على كل رابية فـراش غرام، مـرشوش بـالعطر والشعـر، ووجـوه أحبة كانت تعيش بهم ولهم...

ولطالما اجتوت (من محبتها هذا الماضي) حـاضرها فخـامرتهـا فكرة المـوت فمشت تقصد النهـر حتى اذا أدنتها خطاها الواهنة من مياهه ورأتها تلمع كالمـرآة، أشفقت من الموت وهابته وارتدت عنه للمرة الخامسة بعد الألف إنها لا تريد أن تموت، ولا تـزال متعلقة

بحياة قد أقفرت من المجد والحب.

* * *

ولما دلفت إلى مخدعها في الدير سمعت ضجة، وقالوا لها. إنه الأمير المغيرة ابن شعبة يستأذن عليك. الأمير؟ ما لها وللأمير؟ ما شأنه بها؟ ما يبتغي لديها؟ أما تركت له ولقومه ملك أبيها، فلم لا يترك لها ديرها؟ وفكرت.. ثم أذنت له. فدخل عليها فبسطت له مسحاً، وسألته: ما جاء بك؟ قال: جئتك خاطبا؟

خاطبا؟ إنها كلمة لم تسمعها من عمر طويل، فلما طرقت سمعها هزت وتراً في قلبها كان قد صدىء، ونسيت ضيفها وقفزت إلى الماضي فغابت عن حاضرها، وغرقت في ذهلة عميقة امتدت أبداً، والمغيرة يرقب جوابها، ولكنه كان أكيس من أن يفسد عليها أحلامها، فانتظر صابراً...

تخيلت أنها قد عادت فجأة تلك الفتاة التي كانت فتنة القلب والنظر، وكانت مطمح الأنفس والفكر، قد جمع الله لها المجد كله، والجمال كله، فهى عروس الزمان بهاء وحسنا، وهى بنت النعمان أعز

عربي عزاً، وأمجده مجداً، وأنَّها قد عادت أيام الحيرة، ورجع الفصح والشعانين، فخرجت إلى البيعة تتقرب فيها.

فلما احتوتها البيعة، وأمنت الأنظار، ألقت عنها خمارها، وأخرجت هذه اللؤلؤة من صدفتها، وأبدت ذلك الجسم الذي كانت تتقطع على الوصول اليه قلوب الرجال، ولم تدر أن الزمان أراد أن يؤلف قصة حب، تتلى بعد أربعة عشر قرناً، فجاء بعدي ابن زيد، الشاعر الجميل، ليختلس النظر إليها، ويقع في قلبه هواها، فلما رأته استترت منه، وسبت جواريها، وظنت أن القصة ختمت قبل أن تفتتح، لم تدر أنها قد سطرت منها الأسطر الأولى (لتكون سفر سعادتها العاجلة وشقائها الطويل) يد (مارية) الجميلة الخبيثة..

لقد كانت مارية تحب عدياً، ولا تجد إلى الوصول إليه سبيلا، إلا تأتي بهند لتحلها مكان المحبوبة من قلبه، ترضي بذلك حبها ونفسها، وقد يفنىٰ المحب في الحبيب، فيبني مسرته على أساس من شقاء نفسه، ومشت بين عدي وهند تدير خيط

الحب من حولهما، حتى غدا سبباً قوياً، وجامعة لا تنقطع. لقد صبرت حتىٰ مضى حول كامل علىٰ يوم الشعانين ونسيته هند، فواعدت مارية عدياً بيعة ثوما، وأغريت هند بزيارتها، فأستأذنت لها وهنالك عرفت هند ما الغرام، وذاقت غصصه...

ياويل مارية! لقد جعلت هنداً مهراً لها لزوج ليلة لقد تعرضت لعدي غداة يوم يوماً فهش لهاوبش ـ وقد كان لا يكلمها ـ وقال لها: ما غدا بك؟ قالت: حاجة! أذكريها فوالله لا تسأليني شيئا إلا أعطيتك إياه.

قالت: أريد.. وسكتت، وأدركها الخجل، ونطقت عيناها وفهم عنها، فأخذ بيدها إلى حانوت خمارة في الحيرة.. وكافأته بأن وعدته أن تحتال له في هند...

وتتالت الصور على قلب هند، فذكرت ليالي زواجها بعدي، فكانت لقوة الذكرى تحس على لسانها حلاوة تلك القبل، وتجد على عنقها لذة ذلك العناق، وعاد قلبها شابا، على أن قلب المرأة والشاعر لا يفارقهما الشباب أبدا. ومدت يدها إلى

المغيرة. تحسب أنه لما طغى عليها من الخيال، عدي الحبيب، فلما أحس بها أجفل منها وانتفض، فتهاوىٰ الحكم وتهافت، وهبطت المسكنية إلى أرض الحقيقة الصلدة

فإذا هي لم تفارق أرضها، ولم تطر في سماء الأماني وإذا هي تتحسس وجهها، فتلقاه زابلاً زاوياً ذا غضون. ولا تلفى على لسانها من قبل الحبيب إلا مرارة الفقد، ولا تجد في قلبها إلا ذكرى الفاجعة، التي تركت لأجلها دنياها، وبنت ديرها، فحبست فيه نفسها فماذا يريد منها هذا الرجل! الذي اقتحم عليها معتزلها في هذه العشية الساكتة، أجاء يخطب عجوزاً قد بقيت وحدها إرثاً من الدنيا التي فنيت واضمحلت: دنيا النعمان وكسرى، للدنيا التي يظهر أنها لن تضمحل أبدا: دنيا محمد؟ أيريد أن يتزوج ميتة تمشي؟! لا. بل هو يريد ابنة النعمان.

ونسيت تطوافها الأليم بمرابع ماضيها، وغاب عنها الحبيب الذي كان يتراءى لها من وراء حجب الزمان، وأدركها إرثها الماجد من حزم النعمان، فقالت للمغيرة:

«لــو علمت أن فيّ خصلة من جمــال أو شبــاب رغبتــك فيّ لأجبتـك، ولكنــك أردت أن تقـول في المـواسم، ملكت مملكـة النعــمان بن المنـذر ونكحت ابنته، فبحق معبودك هذا أردت»؟

قال: «إي والله»

قالت: «لا سبيل اليه»

وخـرج المغـيرة، وعـادت العجـوز إلى مكــابـدة الذكريات وحيدة في لياليها الطوال.. وأعرض عنهـا التـاريـخ لا يلتفت إليهـا فيـواسيها، لأنـه لم يتعـود الـوقـوف إلا عــلى أبـواب الملوك، وفي ســاحـات الحروب!!...

* * *

ضفائر النصر

الأديب الكبير
علي الطنطاوي

ضفائر النصر

الشيخ الأديب الكبير:
علي الطنطاوي

كان ذلك في يوم من أيام سنة ٦٠٧هـ، وكانت دمشق تصارع دهرها الغاشم الحرون الذي رمى بلاد الشام بقاصمة الأصلاب، الصليبيين، فنزلوا على مدنها نزول البلاء، وفشَتْ أجنادهم في نابلس وعكا وبلاد أخرى «فشو» الطاعون، وكان أمرها يزيد كلما زاد الكرب، وحزمها ينمو كلما نَمَتْ المصيبة، شأن دمشق في كل عصر.

وكان طوفان المغيرين يمتد ويتسع، يحمل الموت والدمار، يأتي على البلاد والعباد، يجتث الحضارة من أصولها، وأهل الشام ينهضون له فلا يملكون له دفعاً، حتى كادت الديار تخلو من شبابها، ولا يبقى فيها إلا شيخ أو امرأة أو صبي.. أو قَعَدى نسي واجب الجهاد!..

.. وقد ذهب فيمن ذهب إخوة «ميسون»

الأربعـــة، وبقيت من بعـدهم وحيـدة في دارهـا لا يؤنسها إلا شبابها وجمالها وذكرى إخوتها . .

* * *

أصبحت ميسـون مهمومـة، قـد تقـاسم فكـرهـا العـزيزان: وطنهـا وإخوتهـا، فما تـدري ماذا جـرى لهم، وماذا يجري عليهم، ولقف سمعهـا طرفـاً من أحاديث المارة، فعلمت أنـه قد اشتـد الخطر، ودنـا الهلاك، وأن هؤلاء «الواغلين . .» لا يفتأون يركبون جناح الليل الأسود. إلى شاطىء فلسـطين، تحملهم المواخر الهـاربة من عـين الرقيب، المتسللة من وراء الحرس، فكلما دجى الظلام نزلوا إلى الشط أفواجاً؛ فكانوا للغاضبين عوناً، وعلى أهل البلاد حرباً.

وجعلت تفكر في هذه العصبة المجاهدة الكريمـة، مـاذا تستطيـع أن تصنع لهـا؟ وكيف توقـد النـار في أعصاب هؤلاء، الذين لا يزالون يروحون ويغدون، عـلى متاجـرهم وأعمالهم، ويـأخـذون حـظوظهم من مفـاتن الـطبيعــة وجمـال الكـــون؛ وتنسيهم ملذات أجسامهم، ومرابح تجاراتهم، هـذا الخطر الـذي عم البـلاد، والـذي طـال الـزمـان بـه، ونشـأوا عليـه،

فألفوه، ونسوا أيام الحرية والمجـد، وأن هذه البـلاد بـلادهم، وأنهم سلائـل الأبطال الفـاتحين، وحسبـوا حكم هؤلاء (الواغلين. .) ضربة لازب، وأن قضـاء الله قـد تم فيهم فـلا ينفـع معـه سعي، وأن أيــام السعادة قد انتهت فلا تؤمل لها رجعة.

كيف لها وهي فتاة بإيقاظ هذه النفوس التي امتد بها الجوع، حتى كاد يكون موتاً؟. كيف تفهم هـذه الشخوص التي تجيء وتذهب كشخوص من ورق في ألعوبة (الكراكوز)، إن الحياة ليست بطنـاً يملأ، ولا شهـوة تقضى، ولا مـالاً ينـال، ولكن الحيـاة المجـد والتقى، وجلائل الأعمال، وأن يعرفـوا للوطن حقه، وأن يعلمـوا، ويعلم كل عـربي، وكـل مسلم، أنـه مــادام في فلسـطين (واغــل. .) واحـد من هؤلاء، فحرام أن ينعم زوج بأهله، أو غني بمـاله، أو يغلق جفن عـلى لـذيـذ المنـام؟ وإنها لفي تفكـيرهـا، وإذا بالباب يخفق وإذا هو نعي إخوتها الأربعة. .

* * *

صعقت ميســون لهـذا النبــأ، وعجـز جسمهــا اللدن، وقلبهــا الــرقيق عن حمـله، فتـضعـضعَـتْ

وانهارت، ولكن الإيمان والشباب تنبها في نفسها، ونهضا من تحت أنقاض الصبر، وخلال غبار المصيبة، يوقظان اللبؤة للانتقام، لقد كانا وتراً واحداً فصارا وترين، وكانت تطلب ثأر وطنها، فلتطلب ثأر وطنها وإخوتها، ووضعا البارود في أعصابها، كما يوضع في المدافع، ثم أرسلاها في هذا الشعب الهاجع، تقرع أذنه بالرعود، فيفيق أو ينام للأبد..

وأحست ميسون أن في عضلاتها القوة التي تهز دمشق هزاً، وفي حنجرتها الصوت الذي يسمع الأموات، وفي قلبها العزم الذي لا يكل، والمدد الذي لا ينقطع، والأبد الذي يفل الجيوش، ويدك الحصون، وكذلك الإيمان إن نزل بقلب امرأة جعل منها بطلا لا يغلب، وما أعجب ما يصنع الإيمان!..

* * *

وهمت ميسون أن ترتدي ثيابها، ثم تطلب ميدان العمل، وتلفتَتْ حولها، فلم تجد لها في الأرض قريباً، ولا ذا رحم، فقطعت أسبابها من الأرض،

ثم وصلتها بالسماء، فشعرت كأنها مؤيدة بقوة إلهية، اصطفتها من دون الناس، لتعلم، وهي الفتاة الغريضة الناعمة، لتعلم هؤلاء الرجال، الرجولة كيف تكون!..

ولم تعلم من أين تبدأ العمل، وجعلت تفكر، وهي تمر يدها على شعرها المنسدل حولها، المتموج كالحرير، يفتن العباد لو أرادت به الفتنة، ويأسر قلوب الفرسان، فسطعت لها الفكرة كما يسطع البرق خلال الظلام، إن هذا هو سلاحها، لتشدن الرجال بهذا الشعر الناعم، ثم لتقودهم من أعناقهم إلى المعمعة الحمراء، لتجعلنّ من ضعفه قوة تأكل القوي.

وذهبت فنادت جارات لها كن يقتدينَ بها، ويسمعنَ منها، فذكرت لهن مصابها في إخوتها، فحسبنها قد دعتهنَ ليواسينها ويخففنَ عنها، ولكنها مضت في حديثها مصعدة، حتى سمت إلى فلك التضحية، ونسيان النفس، ورفعتهنَّ معها، حتى إذا استوثقت منهنَّ، قالت: إننا لم نخلق رجالا نحمل السيوف، ونقود الخميس، ولكنا إذا جبُنَ الرجال لم

نعجز عن عمل، وهذا شعري أثمن ما أملك أنزل عنه، أجعله قيداً لفرس تقاتل في سبيل الله، لعلي أحرك هؤلاء الأموات.

وأخذت المقص فجزت شعرها، وصنع الفتيات صنعها، ثم جلسن يضفرنه لجماً وقيوداً لخيل المعركة العابسة، لا يضفرنه ليوم الزفاف، ولا لليلة العرس..

* * *

أرسلن هذه القيود واللجم، إلى خطيب (الجامع الأموي) سبط ابن الجوزي العظيم، فحمله إلى الجامع يوم الجمعة، وقعد في المقصورة، وقد زلزلته الحماسة فما يستقر، ونفذ منه الصبر، فما يدري أيان يصعد المنبر فما آن الأوان حتى أسرع بالصعود، وجلس وهذه اللجم وهذه القيود بين يديه، والدمع يترقرق في عينيه ووجهه ممتقع شاحب، والناس يلحظون ذلك كله، وينظر بعضهم في وجوه البعض، فلما انتهى الأذان قام فتكلم..

خطب خطبة، حروفها من نار، تلذع أكباد من يسمعها، وكلماتها سحر، لم يدر هو مأتاه لأن قلبه

كان يتلقاه من عالم مجهول، فيقذف به على لسانه، ولم يستطع أحد أن يرويها لأنها خطاب من الروح إلى الروح، قد ذابتْ كلماتها في معانيها، ثم استحالتْ معانيها إلى إيمان وتضحية وبذل.

فكانت إحدى هذه المعجزات البلاغية التي يهدر بها كل عصر مرة، لسان محدث، أو يمشي بها قلم ملهم، كرامة من الكرامات، وواحدة من خوارق العادات، يجعل الله بها الكلمات أحياء عظيمة، لها روح تجذب الأرواح، ويد تشد الأعصاب، وعيون تبصر العيون.. وإنما حفظوا منها جملاً، نقلوها إلى لسان الأرض، فجاءت كتمثال الحسناء، جميل ولكنه من الشمع.. وكان مما حفظوا:

«يامن أمرهم دينهم بالجهاد حتى يفتحوا العالم، ويهدوا البشر إلى دينهم، فقعدوا حتى فتح العدو بلادهم، وفتنهم عن دينهم!.

يامن حكم أجدادهم بالحق أقطار الأرض، وحُكِموا هم بالباطل في ديارهم وأوطانهم!

يامن باع أجدادهم نفوسهم من الله بأن لهم الجنة، وباعوا هم الجنة بأطماع نفوس صغيرة،

ولذائذ حياة ذليلة»!..

يا أيها الناس:

ما لكم نسيتم دينكم، وتركتم عزتكم، وقعدتم عن نصر الله فلم ينصركم، وحسبتم أن العزة للمشرك، وقد جعل الله العزة لله ولرسوله وللمؤمنين؟.

ياويحكم أما يؤلمكم ويشجي نفوسكم مرأى عدو الله وعدوكم، يخطر على أرضكم، التي سقاها بالدماء آباؤكم، يذلكم ويتعبدكم، وأنتم كنتم سادة الدنيا؟

أما يهز قلوبكم، وينمي حماستكم، أن إخوانا لكم، قد أحاط بهم العدو، وسامهم ألوان الخسف؟!..

أما في البلد عربي؟ أما في البلد مسلم؟ أما في البلد إنسان؟.

العربي ينصر العربي! والمسلم يعين المسلم! والإنسان يرحم الإنسان.

فمن لم يهب لنصرة فلسطين، لا يكون عربياً ولا

مسلماً ولا إنساناً!!..

* * *

أفتأكلون وتشربون وتنعمون وإخوانكم هناك يتسربلون باللهب، ويخوضون النار، وينامون على الجمر؟..

يا أيها الناس، إنها قد دارت رحى الحرب، ونادى منادي الجهاد، وتفتحت أبواب السماء. فإن لم تكونوا من فرسان الحرب، فافسحوا الطريق للنساء يدرن رحاها، واذهبوا فخذوا المجامر والمكاحل! يانساء بعمائم ولحى!..

أو لا.. فإلى الخيول. وهاكم لجمها وقيودها..

ياناس .. أتدرون مم صنعت هذه اللجم وهذه القيود؟..

لقد صنعها النساء من شعورهنَّ، لأنهنَّ لا يملكنَ شيئاً غيرها، يساعدنَ به فلسطين. هذه والله ضفائر المخدرات، التي لم تكن تبصرها عين الشمس، صيانة وحفظاً، قطعنها لأن تاريخ الحب قد انتهى، وابتدأ تاريخ الحرب المقدسة، الحرب في

سبيـل الله، وفي سبيـل الأرض والعـرض، فـإذا لم تقدروا على الخيل، تقيدونها بها، فخذوها فاجعلوها ذوائب لكم وضفـائر.. إنها من شعـور النساء، ألم يبق في نفوسكم شعور!..

وألقـاهـا من فـوق المنـبر عـلى رؤوس النـاس، وصرخ:

«تصدعي ياقبـة النسر، وميدي يـاعَمَد المسجـد، وانفضي يارجوم، لقد أضاع الرجال رجولتهم..».

فصـاح الناس صيحـة مـا سمـع مثلهـا، ووثبـوا يطلبون الموت!..

* * *

بلغت الحيـاة هـذه القلوب فعـاشـت بحـميـة الإيمـان، وحمـاسـة الشرف، وعـاش فيهـا إرث الجـدود، فهبت دمشق، يستبق رجـالهـا في طـريق الجهـاد، وتـوالت الأمـداد عـلى الملك المعـظم في نابلس، ونابلس دائماً مطلع شمس النصر، ونـابلس دمشق فلسطين، وكانت هجمة الأسود على الأعداء (الـواغلين..) فـطردوهم حتى التجـأوا إلى عكـا، فحـاصروهم فيهـا حـتى أشرفـوا عـلى الهـلاك،

فاستسلموا. . .

وكذلك جاء النصر على يدي رجل وامرأة، أما الرجل فقد أكرمه الله فجعله أحد العظماء الخالدين، وأما المرأة فقد كافأها فرد عليها إخوتها الأربعة سالمين مظفرين، لم يصبهم سوء. . .

وعمَّتْ الدنيا أن أتباع محمد، لا يذلون ولا يستعبدون، وما بقي فيهم رجل واحد، أو امرأة مفردة، طوَتْ صدرها على إيمان صحيح. وأنهم قد ينامون ولكنهم لا يموتون، وأن (الواغلين. .) عليهم، في فلسطين وغير فلسطين، قد يقيمون حيناً، ولكنهم لا يستقرون ولا يملكون!!. .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
● **على أبواب المدينة:**	
الأديب الكبير الشيخ علي الطنطاوي	٩
● **سيدة بني أمية:**	
الأديب الكبير الشيخ علي الطنطاوي	٢١
● **ابن الحب:**	
الأديب الكبير الشيخ علي الطنطاوي	٣٧
● **هند والمغيرة:**	
الأديب الكبير الشيخ علي الطنطاوي	٧١
● **ضفائر النصر:**	
الأديب الكبير الشيخ علي الطنطاوي	٨٣

○ ○ ○